ملتقى الشعر

والفلسفة

حول شاعرية المعري وفلسفته

لعلي أدهم

من أصدق كلمات هيجل قوله « الرجل العظيم يجشم الدنيا مشقة فهمه » فمن الدنيا قد تنصف العظيم وتجل شأنه وتذيع ذكره وتنشر مزاياه وفضائله وتقذفه بالورود والازهار وترفع له الانصاب وتقيم التماثيل وتغمره بآيات التبجيل والتقدير ، وقد تسيء اليه وتمقته وتجازيه شر الجزاء وتغري به الافاعي تنشط حتفه وتنكر عليه فضله وتحصبه بالاحجار او تجرعه السم الذعاف وتصلبه على الاخشاب وجذوع النخل وتمثل به اشنع تمثيل ، ولكنها على الحالين لا تألو جهداً بعد موته في استقصاء اخباره واستئناف النظر في حياته وتدبر أقواله وأفعاله ، وتحتفظ بما يقع في يدها من آثاره وتحرص عليه الحرص كله ، ويظل كل جيل يبدأ النظر من جديد في حياته ويرسل رواده ليطوفوا في عالمه ويضعوا المصور الجغرافي الذي يبين مواقع الافكار ومواطن الاحساسات ، ويصف هؤلاء الرواد عند عودتهم تأثراتهم ويكثرون من الحديث عما رأوه من المشاهد فيحفز ذلك غيرهم الى معاناة السفر والضرب في المجاهل

وباعث هذه العناية بحياة العظماء التي لا يعتورها الفتور والتي لا تفتأ تتجدد مع تراخي الاحقاب وتوالي الاجيال هو ان نفوس العظماء مركبة عالية متصلة الاسباب بسر الوجود الخفي الذي تتوق النفس الى معالجته ويستحثها اليه ميل لا يغالب ، فلا يعدم من الطلب مهما تصدتها الحوائل وعرضت لها الشواغل ، وكل جيل يفهم العظيم على طريقته ويقدر قيمته بمعياره ، ولكل عصر من العصور طابعه الخاص وميزته المتفرد بها ، والعصور في ذلك كالافراد لها ملامحها وطبائعها وطرائق تفكيرها واساليب معرفتها ، ولكل عصر فكرته البارزة ونزعته المهيمنة على نفوس اهله ، وانما يتأثر العصر من العظيم بمقدار اقترابه من هذه النزعة السائدة ، ولقد كانت جمهرة أدباء القرن الثامن عشر وعلى رأسهم فولتير تزدري عبقرية شكسبير وترخص قدرها ،

وكان الشاعر يرب يقرب وهو يظن نفسه قد اهتدى الى سر أسرار شكسبير ووقف على الدافع المستغلق الخفي للكتابة . وانما بعد طول البحث والتعمق في التفكر « لا بد للانسان أن يصمم » وذلك آفة النزعة المغنية عند مفكري ذلك العصر عصر الاستدارة وزمن المستنيرين . وكان الثعالبي صاحب اليتيمة يرى أن ملك شعر المتنبي قوله

أزورهم وظلام الليل يشفع لي وأنثني وبياض الصبح يغري بي

لانه طابق بين الزيارة والانثناء وظلام الليل وبياض الصبح ، والشفاعة له والاغراء به وكل هذا جميعاً في بيت واحد ؟ وانها معجزة باهرة وقدرة خارقة للعادة ! ولست أحاول أن أستطيل على الثعالبي وأتناوله من وراء مشارف النقد الحديث وأشتد في تعنيفه لهذا الرأي القائل فهو رجل يمثل عصره أحسن تمثيل وله عذره المقبول ، والتجني على نفسه وكثرة تواليفه لم يرزق من العبقرية ونفاذ النظر وسلامة الفطرة ما يرفعه قليلاً فوق مستوى عصره الفكري ويصونه عن الغوص الى الاعماق في أوهامه وتعسفاته ، وان للمتنبي أبياتاً سائرة كثيرة أحق بهذه المكانة وأجدر بحسن التقدير من هذا الزخرف المموه والطلاء الكاذب الذي راق الثعالبي . والذي يبهرنا في العصر الحاضر من المتنبي جمال أصدق من محسنات البديع ويشرق علينا من ناحيته ضوء لم تبصره عيون الكثيرين من النقاد السالفين ومن بينهم الثعالبي

ومن هؤلاء العظماء الذين تفاوت في تقديرهم الاجيال وتتشعب الآراء وتتجدد الرغبة في دراستهم بتجدد الازمان أبو العلاء المعري ، فاننا في العصر الحاضر نفهمه على أسلوب يغاير أسلوب معاصريه في فهمه ونسلك اليه طريقاً يخالف طريقهم ونرى فيه غير رأيهم ، فما كانوا ينقمونه منه ويكرهونه من أجله نراه نحن موضعاً للعطف والرحمة والتأمل والتفكير ، وما كانوا ينظرون اليه منه بعين التصغير والتجهيل ننظر نحن اليه منه بعين الاكبار والتبجيل ، ونحن العصور المتأخرة على وجه الاجمال أحسن تقديراً لعظمائه لأنهم لا يعبدون العظيم ولا يرجمونه بالاحجار ، وانما يصلون على قبره ونشأ تتخذ العظماء وسيلة لمعرفة عصورهم ومرآة يتمثل فيها اصطفاق النزعات وتباين الآراء في زمانهم فحسب ، بل نستعين بهم على فهم اسرار نفوسنا واستجلاء غوامضها وسبرة خفية الشئون التي تختفي بها من النواحي ، وكأننا نقترب من فهم الكون الكبير غير المحدود بتأمل هذه الافلاك النيرة السابحة في جو التاريخ والاكوان الصغيرة المليئة بالاسرار والغرائب والتي ينطوي فيها العالم الاكبر

ومن أغرب غرائب العظماء الجديرة بالنظر والاعتبار والتي قد تظهر لاول وهلة عادية مألوفة جمعهم بين أشياء مختلفة الاعراق متناقضة كل التناقض ، ومن قبيل ذلك التئام النزعة الفلسفية بالسليقة الشعرية في أبي العلاء ، وائتلاف النزعة العقلية بالموهبة الفنية في مثل جيتي

وابسن، وذلك لأن الفلسفة غير الشعر، والشعر نقيض الفلسفة، وكلاهما قائم على استعدادات في النفس متغايرة، وقل مثل ذلك في الملكة الفنية والاستعداد العلمي، فإن الفن الذي دأبه ان ينظر الى الاشياء مجتمعة في كليتها غير العلم الذي يعمد الى التحليل وصدع ألفة الاشياء وعراها في طبيعة الانسان تختلف

وليس أبو العلاء فيلسوفاً من باب التوسع والمجاز أو لأنه أخذ بطرف من الفلسفة، بل هو فيلسوف بالمعنى الشامل الحديث للكلمة الذي يفهمه منها أمثال الاساتذة وندلباند وهفدنج وفوييه وغيرهم من كبار مؤرخي الفلسفة في العصور الحديثة، وهو يدخل الى حظيرة الفلاسفة بمثل البطاقة التي دخل بها أمثال نيتشه وكارلايل وكولردج وغيرهم من عظماء الكتاب والمؤرخين والشعراء الذين أملت عليهم أفكار خاصة ظاهرة المعالم في مناحي تفكيرهم وإن لم يتبعوا على أساسها مذهباً فلسفياً متسقاً محبوك الأطراف متجاوب الاقسام مثل مذهب شوبنهاور وهجل وغيرهما من أصحاب الأبنية الفلسفية الضخمة. ولأبي العلاء أفكار خاصة مبتكرة عن الآداب والأخلاق وآراء في المرأة والتاريخ والاجتماع والحياة وكلها ظاهرة الحدود مطردة الاحكام لا يني يرددها ترديد العابد تسبيحاته، ووراء هذه المجموعة من الخواطر المنثورة المنظومة فكرة عامة يفزع اليها ويحف برايتها، وهذه الفكرة العامة خفاقة في كل ربوعه الفكرية، ويصح ان نسميها مذهباً فلسفياً وموقفاً خاصاً تجاه الحياة، ونستطيع ان ننظر الى هذه الطوائف من الخواطر والافكار التي تموج بها صفحات دواوين أبي العلاء منفصلة عن الصورة الفنية والقوالب الشعرية، وقد تجاوز المعري منطقة الشاعر الى منطقة الفيلسوف، فهو من الحين الى الحين يصارع مشكلات الفكر الابدية ويجاهد معضلات الحياة المستعصية بجأش ربيط من غير ونية ولا فتور، ويحاول ان يفض اغلاقها وينزع النقاب عن سرها، وتكاد تشعر بلهفة نفسه وتصلصل جوفه من شدة الظمأ الى جرعة من المورد الذي يرد كل المفكرين ظمأى متقلعي الشفاه لا ينقع لهم غليلاً ولا يشفي لهم نفساً، ولم تبرد من لوعته المشبوبة في هذا الجهاد الشاق أضاليل الاماني وكواذب الاحلام، ولم تصرفه عن مطلبه العسير صوارف الحياة ومشاغل العيش، وهو يختال في وزن هذه المشكلات ببراعة فنية مدهشة جديرة بأساتذة الفن وأعلام الأدب، ويكاد يذهلك في شعره التفكير الفلسفي عن الوحي الشعري لولا ما يتألق خلال أشعاره من بارقات الخيال الملون الثري وما يشفها من حرارة المشاعر الحادة المستيقظة وما يتطاير فيها من تلك الكلمات المجنحة التي لا تهب الا من متون كبار الشعراء، ولم يتحدث شاعر من شعراء الحضارة الاسلامية عن سر الوجود وغرائب الحياة والموت ولغز الخلود بلهفة تشف عن الاهتمام العظيم مثل أبي العلاء، ولم يجعلها أحد منهم قطب حياته وكعبة خواطره كما

جملها أبو العلاء ، فطريقه في الشعر أغرب طريق مبتكر لم يسلكه أحد قبله وقليل من طرقه وسار في موحش دروبه بعده ، ولقد صار الحق على يده جدالاً شعرياً قبل أن يصير الجدل حقاً فنياً فهو شاعر تهزه الأفكار ويميل بنفسه كل ميل كما تحركه العواطف وتستهويه الخيالات ، وله مكانة محترمة بين الشعراء ومنزلة عالية عند الفلاسفة ، وهو من سكان المنطقة الحائرة الشعرية وله أيضاً قصور رحبة وضياع فسيحة في المنطقة المتجمدة الفلسفية

وبين الشعر والفلسفة حرب قائمة من قديم الزمان ، وما نود أن تضع هذه الحرب أوزارها ولا أن تنطفئ شرارتها ، بل يحلو لنا أن ننفخ في نيرانها المستعرة لتتسع دائرتها وتظل مضطرمة النار إلى ما شاء الله ، لو استطعنا إلى ذلك سبيلاً ، وقد بدأت هذه الحرب قبل أن يطارد أفلاطون الشعراء من جمهوريته الخيالية خشية أن يفسدوا عليه أساسه الخيالي ، وإنما نود دوام هذه الحروب لأنه ليس مما يسر أن يبقى الشعر في الفلسفة فيستحيل صوراً ذهنية قليلة الجدوى ، ولا أن تندمج الفلسفة في الشعر فيجف ورقها وتحول خيالاتها لا طائل تحتها ، ويحسن بكل منهما أن يعمل في دائرته ويسير في طريقه وإن كان هناك مستوى أسمى يلتقيان في أعاليه ويتصافحان ويطلع كل منهما الآخر على نفيس مدخراته وغالي كنوزه ، ولذا نرانا عندما نقف حيال شاعر كبير نتساءل عن فلسفته وطريقة نقده للحياة ، كما جرت العادة أن يرصع الفيلسوف كتاباته بشواهد مستمدة من الشعر يدعم بها حجته ويبرر موقفه ، فالشاعر يقتبس من أنوار الفيلسوف والفيلسوف يختلس من أشعة الشاعر ، وهما لا ينسيان هذا النسب العالي والإخاء الروحي في أشد أوقات الخلاف والعداء

وليست وظيفة الشاعر أن يتناول الحق مجرداً ، وإنما وظيفته أن يتناوله من عناصر الحس وينقضه بالخيال ويترجمه بحيرة الإنسان وعواطفه وأشواقه ومراغبه ، وليست المشكلة الأولى في الشعر هي قيمة الشاعر في ذاته وإنما كيفية قوله وأسلوب أدائه ، وهناك جماعة من نقدة الأدب يغالون في ذلك فلا يهمهم من الشعر إلا الصورة التي عبر بها الشاعر وتحديد نصيبها من الجمال والإتقان الفني ، ولست أشك في أن الصورة والتعبير لها في الشعر المكان الأول ، فقد تؤثر فينا خمرية من خمريات أبي نواس ، وقصيدة من مجموعة الأغاني أبلغ مما تحدثه فينا أدق الحكم وأقدس الكتب ، ولكننا بعد أن نفرغ من أمر الصورة لا نقف عند هذا الحد بل ننتقل إلى ما وراء ذلك فلا نبيح لقب الشاعر الكبير إلا للشاعر الذي يعبر عن عمق الأشياء ويلمس خفايا القلوب ويطوف بنا في مشارق النفس ومغاربها ويرشدنا إلى آفاق فكرية سحيقة ويركز أعلامه فوق قممها وثناياها

وليس الشاعر هو الرصاص الوزان الذي يرصف الألفاظ رصفاً وينحت التراكيب ويوقع

التفاعيل ويتخير القوافي الرنانة ، فهذا وزان نظام لا أكثر ولا أقل مهما تسامى أو أسف ، وإنما الشاعر الحق هو من كان بطبيعته أكثر استجابة لمؤثرات الكون المحيطة به وبخاصة تلك المؤثرات التي يرتقي تصويرها الفن وهو يجمع الى ذلك موهبة الموسيقية والتنغيم والسيطرة على اللغة وتسخيرها في اداء اغراضه والترجمة عما يقوم بنفسه من التأثيرات وما يدور فيها من شتى الخوالج وهو بذلك يستطيع ان يصب عواطفه ونوازعه وخواطره عبارة موسيقية منسجمة ويقولها في شعر متسق جميل ، فهو مثل زهر خفاق توقع عليه الطبيعة ألحانها وتعزف أناشيدها ، وهو يفطن بحدة مشاعره الى جمال في الطبيعة يغيب عن عيوننا ويسمع منها انغاماً لا تصل الى آذاننا ويروي لنا عن عالم بعيد وان كان جد قريب منا ويحدثنا عن ارض مسحورة هي التي نعيش فيها ونسعى في مناكبها غير عالمين بما فيها من مفاتن الحسن وروائع الجلال لنبو الشعور وكلالة الحواس

***

على أن توافر هذه المزايا الشريفة والمواهب العالية لا يكفي لانشاء شاعر كبير يعبر عن روح العصر ويصف شتى جوانب النفس الانسانية وتلتقي في نفسه البواعث المختلفة والتيارات المتناوحة، وانما هي تكون شاعراً وسطاً يطربنا شعره ولكنه لا يملأ نفوسنا ونتخذه صديقاً مسلياً لا استاذاً نسترشد بحكمته ونلتمس آرائه ، والشاعر الكبير يلزم له مجهود من الطبيعة أكثر من ذلك وعليها أن تجزل له المواهب السنية ولا مفر من ان يزاد الى تلك الحاسبة اللطيفة والطبيعة المذودة بالانغام عقل كبير يضيء الظلمات ويكشف الخبآت تشد من قوائمه في اكثر الاحايين ثقافة عالية وعلم وافر ، وأمثال هؤلاء الشعراء قلائل في كل الامم يبخل بهم الزمن وأبو العلاء من هؤلاء النوادر القلائل

ولعل النزعة الفلسفية جارت في أبي العلاء على السليقة الشعرية ، وفي المعركة التي نشبت بين عقله وعواطفه تغلب العقل في كثير من المواقف واستعلى على العاطفة ، وقد دفع أبو العلاء ثمناً غالياً لذلك ، ولولا تهاجمه هذه الخطة وسرافه على نفسه فيها اسرافاً أساء الى شاعريته لكان شعره احرى بـ . . . سمات الفن واشد حركاً في الطباع ، ولقد اجاب ابو العلاء داعي الفلسفة ولم يلب داعي الشعر لما قطع الاتصال المباشر بينه وبين الحياة والمجتمع وظل في عقر داره يجيل افكاره ويذبح عواطفه ولا يتعرض لحلو التجارب ومرها ولا يعاني مد الحياة وجزرها ، والوقوف . . . الشاطئ وعدم المغامرة في اللجج والتقلب في ادوار الامل والخيبة والارتفاع والهبوط مسلك . . . يلائم طبيعة الفلاسفة المتنسكين والعباد الزاهدين ولكنه مفسدة اي مفسدة للشعر ابن الطبيعة المدلل وصفيها الحبيب . وقد غض هذا المسلك من روعة خيال المعري وشوه

من جمال شعره ، وثأرت شاعريته الاصيلة لنفسها من نزعة التجريد والانطلاق وراء الحق الفلسفي فصار أطول الناس مصابرة وأشدهم جلداً على القراءة لا يستطيع أن يمضي في قراءة صفحات معدودة من اللزوميات دون أن يحمل على نفسه ويعنتها

***

وحسب ابو العلاء انه قد أسقط الكذب عن شاعريته لانه نزهها عن الخيال وحبسها على تقرير الحق العاري من التمويه والطلاء ، وجاراه في ذلك الدكتور طه حسين قال في ذكرى ابي العلاء عندما عقد الموازنة بين المتنبي وابي العلاء « المتنبي حكيم يتحدث الحكمة ويتكلف الفلسفة وابو العلاء حكيم حقًا وفيلسوف لا يعرف التكلف ولا الانتحال ؛ وحب المال والرياسة من الملوك والامراء اندفع بالمتنبي الى الكذب والمين وجعل حكمته صنعة وفلسفته شركاً لاصطياد المال ، والاستهانة بامر الدنيا جعلت ابا العلاء شديد الحرص على الصدق عظيم الحذر من احتمال الزور فكانت حكمته صادقة وفلسفته فطرية ، ومن هنا استجاب المتنبي الى الخيال وامتنع ابو العلاء عليه» وواضح من رأي الدكتور ان الخيال شديد العلاقة بالكذب وان ابا العلاء حرص على الصدق فنبذ الخيال ، وليس الامر كذلك ، وأرى ان مصدر هذا الوهم هو الخلط بين الحق الفلسفي والحق الفني ، وليس الخيال هو الكذب وانما هو منظار الحقائق ومصور خفايا النفس ، وهو عتاد الشاعر وركنه الركين ، واذا كان الشاعر طائراً فان الخيال جناحه ، وقد يظن ان الخيال كذب وذلك لان الفن نفسه قائم على اكذوبة عريقة النسب في الصدق اذ يخلق عالماً غير العالم ويعمره بالموجودات والاحياء ، والخيال هو عامل الانشاء في بناء هذا العالم وخلق احيائه ومبدع موجوداته ، والفن لا يجاري الواقع ولا يحتذيه لا لانه يجافيه ويتعمد ان يقلب نظامه ويعكس سننه وانما لانه يحاول ان يكمل نقصه ويسد فجواته ويصفيه ويهذبه ، قال شوبنهور « ان وظيفة الخيال هي أن يتم ما تبدي الطبيعة طلابه فيعجزها » وانما المهم في الخيال أن يقوم على صدق الاحساس ، وقد يصف لنا كاتب من الكتاب جزائر واق الواق او جبل قاف او بلاد بليت وهو مع ذلك أصدق حديثاً ممن يصف لك مشهداً عادياً معروفاً ، وقد وصف هومر حرب طروادة وصفاً قد يختلف في ظاهره وتفاصيله عن وصف المؤرخين لها ولكن هومر يعطيك لباب الحادثة ويطلعك على روحها ويترك القشور ويلقي الحشو . والخيال على نوعين : الخيال المنشىء مثل خيال شكسبير ودانتي وجيتي لانه يجسم الاحساسات ويخلق الشخصيات ، والخيال النافذ مثل خيال كارلايل ورينان ، وهذا النوع من الخيال هو الذي يعين صاحبه على استحضار

طيوف الماضي وتصوير الشخصيات التي طواها الموت ولولا الخيال لحرمت الانسانية من أروع طرق الادب وأنفس مبتكرات الفن ، وأرجح ان الدكتور عدل رأيه في هذا الموضوع بعض التعديل فقد شدَّد النكير على الاستاذ العقاد لانهُ رمى المعري بضعف الخيال في رسالة الغفران وعدها كبيرة من الكبائر وذلك في المقال الذي كتبهُ في نقد كتاب « المطالعات » ، والمتنبي أقوم بحقوق الشاعرية من أبي العلاء وأوفى بعهودها وحكمته فيض الطبع وثمرة التجربة ، وهو لا يقتضب الحكمة ولا يسوقها لك كالسواق الحطم ولا يؤديها بطريقة تعليمية جافة او على أسلوب المتحذلقين وزرافة المعرفة الذين شحنت غرائزهم بالبديهيات ورخيص الحكم ومبتذل الامثال ، وانما يأتي بالحكمة في سياق وصف حادثة او تصوير موقف باعتبارها جزءا عضويًّا من الوصف، وقطعة من الصورة ، وهذا الايراد الفني للحكم حسب مقتضى الحال وفي المناسبات السانحة هو الذي أثبت حكمة المتنبي على كواهل الدهور وطبعها في النفوس وأجراها على عذبات الالسنة

***

ولقد ظهر جيتي في المانيا في عصر نهضة حافلة ، وكان الجو الفكري يمور بالافكار الفلسفية فسبَّ جيتي من الفلسفة ولكن بمقدار صونا لشاعريته ، وذهاباً بنفسه عن الانغماس في التجريدات ومجافاة عالم الحقائق المبنة والواقع الملموس فلم تذبل شاعريته ولم يُمَحَّصْ خياله بل ازداد قوة على قوة ، وقد تأثر جيتي بالفيلسوفين اسبنوزا وأفلاطون وهو مدين لهما بالكثير « ولكنهُ كما يقول الاستاذ ادورد كيرد في مقاله البديع عن « جيتي والفلسفة » ظلَّ طول حياته على أهبته لا يسمح للفلسفة ان تستأثر بنفسه ولا يقبل منها الا ما يماشي نوازعهُ ويلائم طبيعته ، وكان يستمر تائهيا دون ان يدرس في تيهها او يأخذ في مسالكها الملتوية اذ كان يعلم أن قوتهُ الركينة قائمة على وحي الخيال الشعري » وقد أرضى جيتي غريزة حب الاستطلاع القوية في العبقريين دون أن يسيء الى شاعريته ففتح أبوابه لتأثيرات مختلفة وشارك في أكثر الحركات الفكرية ولكنهُ لم يمكنها من اجتياح طبيعته واستئصال غرائزه ، وظلَّ ثبتاً في مهاب رياحها ، وكان يعلم ان الافراط في طلب الحق الفلسفي يعاق حماسة طلب الحق الفني ، ومن الاستهانة بحقوق الفن أن يسخر الشاعر ملكته لاجل فكرة أو ان يقفها للنضح عن عقيدة ، لان الشاعر فنان قبل كل شيء ، ولا يكون الفن فناً خالصاً الا اذا كان مالكاً حريته مطلق السيادة في عالمه لا شريك لهُ في ملكه ولا مدافع لهُ عن مكانه ، والدين والفلسفة والادب كلٌّ منهم سيدٌ في عالمه ، والشعر لا يكون شعراً الا اذا كان حرًّا طليقاً غير خاضع لسلطان الدين او للفلسفة او

الآداب ، والاشعار التي تتضمن الوعظ والنصائح وكستنفر الناس للفضيلة وترغبهم عن الرذيلة هي نوع من الوعظ وضرب من التبشير ، وأصحابها الصالحون يحاولون انقاذنا من حبائل الشيطان ومهاوي السوء فلهم ثواب عند الله وأجر عظيم في مستقر رحمته لحسن المقصد وسلامة النية ، ولكن الفن لا يجازيهم على مجهودهم لانهم لم يلتمسوا بها وجه الفن ، وأمثال هذه الاشعار شواهد في السلوك ومتون في الاخلاق كما ان ألفية ابن مالك متن في النحو وان كانت منظومة شعراً ، والفن وجوده الخاص وشخصيته المستقلة ، والفنان الذي يحاول ان يستدرجنا على غرة ليسمعنا دروسه الاخلاقية ومحاضراته عن الفضائل والرذائل نسميه واعظاً . وليست الفنون والآداب منابر للوعظ ولا أندية للتبشير ، ومن العبث ان ينازع الشعراء رجال الوعظ وظيفتهم ويضيقوا عليهم سبلهم . ومن المشاهد ان الكتاب الذين تتغلب عليهم نزعة الاقتصار لناحية خاصة من نواحي الاخلاق يمسخون الطبيعة البشرية ويشوّهون تصويرها ، والفنّان الصادق تأبى به طبيعته عن مثل ذلك فلا يغالي في نزعة من النزعات ولا يقتصر لجانب من الجوانب

***

وتختلف وظيفة الشاعر عن وظيفة الفيلسوف ، فوظيفة الفيلسوف هي ان يتناول بالتحليل التيارات الفكرية الغالبة على جيل من الاجيال والتي تشكل افكار هذا الجيل وتقوم على اساسها ثقافته ومعرفته ، ويقيس أبعادها ويسبر أغوارها ، أما مجال الشعر فهو اظهار الجمال ، ولقد قال كيتس الشاعر « ان الجمال حق والحق جمال » ولكن مع ذلك فان التعبير الفلسفي للحياة غير التعبير الشعري ، وقد بسط الفيلسوف الناقد الايطالي بندتو كروتشه الفرق بين الفلسفة والشعر في هذه الكلمات القوية « قبل ان يصل الانسان الى درجة تكوين الافكار عن العام كوّن افكاراً خيالية ، وقبل ان يفكر تفكيراً واضحاً كان يفهم الاشياء فهماً غامضاً مختلطاً . وقبل ان يتكلم ترنم ، ولم ينطق بالنثر الا بعد ان عبر بالشعر ، وقبل ان ينحت الاصطلاحات استعمل المجازات ، فالشعر ليس وسيلة لشرح الفلسفة وانما هو نقيض لها ، فالفلسفة تحرر الذهن من الحواس ، اما الشعر فانه يغرقه في عالم الحواس ، والفلسفة تصل الى الكمال بنسبة تساميها الى العام ، أما الشعر فيعظم ويكمل بمقدار انحصاره في الخاص ، والفلسفة تضعف الخيال وتذبله والشعر يقويه وينطلقه ، والفلسفة تحذرنا من استحالة العقل الى جسم والشعر يحاربه من تجسيم العقل ، وأحكام الشعر مشتقة من الحواس والعواطف ، وأحكام الفلسفة قائمة على التفكير الذي لو تسرب الى الشعر جعله فاتراً ، ولم يعرف في سير التاريخ احد كان شاعراً كبيراً وفيلسوفاً كبيراً معاً » ونستخلص من كلام كروتشه ان الانسان لا يعيد الحسين ، وان التفوق في الشعر والنبوغ في الفلسفة لا يجتمعان في صعيد واحد

وان الانسان صدح بالشعر في بواكير الحياة الاجتماعية وفجر التاريخ قبل ان يتكلم نثراً ، ولج في عالم الاحلام وسدر في غلواء الخيالات والاوهام قبل ان يستكثر من الصور المجردة ويعيش على الفروض والنظريات ، فالخيال جاء قبل المنطق والخرافة سبقت التاريخ والغناء تقدم الكلام والشعر أقدم من النثر . وما زال ذلك يتكرر في حياة الامم ويشاهد في دروجها من مهد الطفولة وملاعبها وغضارة الفطرة وبساطتها الى شباب الحضارة وكهولتها وتكلفها وتعقيدها ، وكل نهضة تبدأ بالشعر ثم تنتقل الى الفلسفة في ابان نضجها وهكذا ينتقل المصباح من يد الشاعر فتتلقفهُ يد الفيلسوف

***

ولا أجد مثلاً أبلغ في شرح رأي كروتشه من الموازنة بين رجلين أحدهما يمثل الشاعرية في أتم معانيها والآخر يمثل الفلسفة في صورة من أكمل صورها ، وهما شكسبير وشوبنهاور ، فشكسبير يصور لك كل خالجة من خوالج النفس ويكسو نزعات الاهواء صورة اللحم والدم ، ووظيفته ان يريك الحياة بأجزائها وألوانها ، وهو يصور عواطف الحب والبغضاء والانتقام والحسد والغيرة والندم والخرق والجشع والطموح وعدم المبالاة ، ويمثل لك حالة الملك الهمام والقائد الرهيب والعابد المتنسك والمارق الفاجر والبطل الأبي والمتسوّل الوضيع والجبان النكس والعفيفة الطاهرة والداعرة الفاجرة الى سائر تلك الصور العديدة من الاحياء التي تفتن الطبيعة في اخراجها ، أما شوبنهور فهو يشاهد في الحياة أمثال هذه الصور المبينة ولكن ينفذ من خلالها الى الفكرة العامة المستقرَّة خلفها ويبني عليها آراءه في الاخلاق ويقيم مذهبهُ الفلسفي ، ويتناول بالتحليل هذه المظاهر ويجردها من ألوانها ويردها في النهاية الى مصدر واحد هو الرغبة في الحياة التي تبدو في صور متعدده

فشكسبير وظيفته ان يمثل ويصور ، أما شوبنهاور فطريقته ان يشرح ويفسر وقد تظفر في روايات شكسبير بالحكم العميقة والنظرات النافذة وضروب الفلسفة العالية ولكنها ليست هناك لذاتها وانما هي جزء من البناء الفني وقطعة من الصورة اقتضتها ضرورة التصوير . وقد تقرأ لشوبنهاور الروائع الادبية والخيالات الشعرية ولكنها ليست واردة في كتاباته لغرض فني وانما هي هناك مدرجة للتجريد وسلم يرتقي به للفكرة العامة ، وموجز القول ان الشاعر هو احساس الانسانية والفيلسوف هو عقلها ولا انسانية بغير احساس أو عقل

« وعقل » الفتى نصف ونصف فؤاده فلم تبق الا صورة اللحم والدم